المحاضرة الثامنة

العلاقات الخارجية في عهد المهدي

اولا _العلاقة مع الامويين في الاندلس

استمرت العلاقات السيئة بين الخلافة المشرقية في بغداد وبين الخلافة المغربية في الاندلس . والواقع ان المهدي سلك نهج والده المنصور في العمل على اعادة الاندلس الى حظيرة الدولة العباسية الا ان بعد المسافة بين الدولتين حال دون ارسال الجيوش العباسية من اجل تحقيق هذه الغاية لكن المهدي كان يشجع كل حركة تهدف الى اضعاف النفوذ الاموي في هذه البلاد .

وكانت تنتاب الاندلس انذاك حركات مناهضة للحكم الاموي يقوم بها البربر احيانا نتيجة تذبذب ولاءاتهم للعرب واليمنية احيانا اخرى بفعل اعتماد الامير الاموي على القيسية .

ففي عام (157 هـ / 774 م) تآمر والي برشلونة وجيرندة سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالاعرابي وهو يمني الانتماء مع حسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة على قتال عبد الرحمن وخلعه . وانضم اليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي غلب عليه لقب الصقلبي ، وكان واليا في بلاد المغرب ولقي الجميع تشجيعا وتأييدا من قبل المهدي .

ويبدو ان سليمان شعر بعجزه عن مواجهة الامير الاموي فطلب المساعدة من الخارج واتخذت مؤامراته بعدا سياسيا خطيرا حين اتصل بشارلمان الكارولنجي في بادر بون في عام (160 هـ/ 777 م) واتفق معه على ان يقوم بمهاجمة الولايات الشمالية للاندلس وتعهد بتسليمه المدن التي يحكمها دون ان يقدر نتائج تعاونه مع الكفار على الاسلام والمسلمين ، وقد وافقه حسين بن يحيى الانصاري على هذه الخطوة . جرت هذه الاتصالات في الوقت الذي كان فيه الامير الاموي منهمكا في اخضاع ثورة اخرى للبربر بقيادة الفاطمي .

والواقع ان شارلمان رحب بالمشروع الذي عرض عليه بفعل دافعين :

الاول : اوروبي _ مسيحي . فالحملة اذا تمت تعتبر اول حملة هجومية يقوم بها الكارولنجيون ضد المسلمين بعد سلسلة من الحملات التي قام بها هؤلاء في عمق اراضي الفرنجة بالاضافة الى انها ستكسبه نفوذا ادبيا كبيرا في العالم المسيحي مما يعزز منافسته لامبراطور الدولة البيزنطية ويدعم جهوده السياسية في اعادة احياء الامبراطورية الرومانية الغربية ثم السيطرة على اوروبا .

الثاني : كراهيته للاسلام والمسلمين . فقد راودته امال وتطلعات لطردهم من اسبانيا لاسيما وان سيادتهم في جنوبي فرنسا قد ضعفت ، او على الاقل حماية الحدود الجنوبية لمملكته من التهديد الاسلامي بتبني سياسة الهجوم من اجل الدفاع .

كانت الخطة المتفق عليها هي ان يعبر الملك الكارولنجي جبال البرينييه ويتجه الى مدينة سرقسطة فيسلمها له الاعرابي وفي الوقت نفسه يزحف عبد الرحمن الفهري من المغرب ويهاجم الساحل الشرقي للاندلس وينزل بجيوشه

في مرسيه . وبهذا يضربون الطوق على عبد الرحمن الداخل ويقضون عليه ثم يعلنون خضوع البلاد للحكم العباسي.

وكان تفجر الثورة في الشمال الاسباني ضد الحكم الاموي اشارة البدء بالتنفيذ . فتحرك الفهري من المغرب ونزل بجيشه على ساحل مرسيه الا ان عبد الرحمن باغته وقضى عليه ولما اجتمعت الجيوش الكارولنجية امام مدينة سرقسطة حسب الخطة الموضوعة استعاد المتآمرون صوابهم ، فأدركوا فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه فرفض الانصاري ان يمضي اكثر من ذلك في تنفيذ المؤامرة فأغلق ابواب المدينة في وجه القوات الكارولنجية .

بالاضافة الى هذا التطور في المواقف السياسية فقد وصلت الى مسامع شارلمان اخبار قيام السكسون بثورة اخرى في المانيا مستغلين الفراغ العسكري الذي احدثه غيابه ، فأضطر الى التخلي عن مشروعه في الاندلس وعاد الى بلاده في عام (162 هـ / 779 م) .

وهكذا ساعدت الظروف من جديد ، الامير عبد الرحمن الداخل وفشل هذا الغزو الضخم الذي تعرضت له بلاده ، كما فشل العباسيون في استعادة الاندلس او اضعاف النفوذ الاموي فيه .

ثانيا _العلاقة مع البيزنطيين

اعتلى ليو الرابع عرش الامبراطورية البيزنطية في العام نفسه الذي اعتلى فيه المهدي الخلافة ، وكانت الدلائل تشير مع بداية حكمهما الى ان العلاقات الحسنة سوف يكتب لها النجاح . فقد اطلق الامبراطور سراح كل المسجونين المسلمين ورد الخليفة على هذه المبادرة بمثلها .

لكن محاولات احلال السلام اصطدمت بطبيعة العلاقات بين الدولتين المتصارعتين التي غلب عليها الطابع الصدامي . واتاح استقرار الاوضاع نسبيا داخل حدود الامبراطورية البيزنطية وعلى حدودها الخارجية للامبراطور ان يعمل على زيادة عديد قواته لمواجهة غزوات المسلمين كما احتفظ بالقادة المحنكين من ذوي الخبرة والكفاءة ممن عملوا تحت إمرة والده .

انتهز الامبراطور هذه الظروف المؤاتية وشن هجوما على سميساط في عام (159 هـ / 776 م) واسر بعض المسلمين ، الا ان المهدي ارسل احد مواليه فأنقذ المدينة . والواقع ان هذه الحملة تعكس معنى واضحا من جانب ليو وهو الاستمرار في انتهاج سياسة عدائية تجاه المسلمين .

اثارت الحملة على سميساط غضب الخليفة المهدي وقرر الرد السريع . فأرسل جيشا ضخما بقيادة عمه العباس بن محمد توغل داخل الاراضي البيزنطية حتى وصل الى انقرة وفتح قلعة كاسن في كبادوكيا .

تكمن اهمية هذه الحملة في انها اثبتت حضورا اسلاميا قويا على الارض مقابل الحضور البيزنطي وتعتبر دليلا على قوة الخلافة رغم متاعبها الداخلية في اخماد الحركات المعادية .

استمر النشاط الاسلامي والبيزنطي محدودا بعد ذلك ، حتى نشط في منتصف عام (161 هـ / 778 م) حين ارسل الخليفة قائده المحنك ثمامة بن الوليد على رأس جيش اسلامي كبير أغار على مرحب والمناطق المحيطة بدابق شمالي حلب .

رد الامبراطور على هذه الغارة ، فأرسل جيشا حاصر مرعش وفصل قوة عسكرية اعترضت تقدم ثمامة باتجاه الحدث وسيطرت على عدة قرى في المنطقة . لكن الجيش البيزنطي فشل في دخول مرعش وفضل قادته رفع الحصار عنها والعودة الى العاصمة .

عكست الحملة على مرعش مخاوف الخليفة الذي انتابه القلق من تزايد الخطر البيزنطي فكان عليه ان يثبت وجوده وفعلا جهز جيشا ضخما عهد بقيادته الى الحسن بن قحطبة ، وامره بغزو بلاد البيزنطيين . توغل هذا القائد في الاناضول وحاصر دوريليوم ، واغار على المناطق المجاورة واقترب من عمورية ثم جلا عن المنطقة بسبب قلة الامدادات وتناقص المؤن ولم تحقق حملته اهدافا ذات قيمة انما اكدت حضورا اسلاميا قويا في المنطقة .

استأنف البيزنطيون نشاطهم العسكري في عام (162 هـ/ 778 م) فأغاروا على الحدث وجاء الرد الاسلامي في العام التالي حين غزا هارون بن المهدي الاراضي البيزنطية وفتح عدد من الحصون اهمها سمالو ، ثم حدث ان واجهت بيزنطية في عام (164 هـ / 781 م) صعوبتين اثرتا تأثيرا سلبيا على قدراتها :

الاولى : وفاة الامبراطور ليو الرابع ، واعتلاء زوجته ايرين عرش الامبراطورية كوصية على ابنها القاصر قسطنطين وقد نتج عن ذلك تململ بعض القادة .

الثانية : تعرضت بيزنطية انذاك لثورة كبيرة في صقلية فاضطرت الى توزيع قواتها مابين هذه الجزيرة والجبهة الشرقية مع المسلمين .

استغل الخليفة المهدي هذه الاوضاع القلقة فأرسل حملة ضخمة الى بلاد البيزنطيين بقيادة ابنه هارون وامره بمهاجمة القسطنطينية . هاجمت الحملة اثناء توغلها المناطق الاستراتيجية في كيليكيا والاناضول بهدف السيطرة عليها . وحتى يموه هارون اهداف وجهة الحملة ، ارسل قوة عسكرية هاجمت ثغر تراقيسيون . وواصل الجيش الرئيسي زحفه نحو العاصمة متجاوزا المقاومة التي اعترضت طريقه ومتغلبا عليها .

ادركت ايرين بعد هذه التطورات العسكرية هدف الحملة فهبت للدفاع عن العاصمة ونجحت قواتها في تطويق الجيش الاسلامي الذي اضحى افراده في موقف حرج . لكن هارون تمكن بذكائه وبفضل مهارته القيادية من الخروج من هذا المأزق ، وتابع تقدمه حتى بلغ خليج القسطنطينية وهدد العاصمة . ورأت ايرين نفسها في موقف صعب لا يتيح لها المساومة او الاختيار فخضعت مضطرة لشروط هارون واهمها :

1_ تدفع ايرين للخلافة العباسية جزية سنوية تتراوح بين سبعين ال وتسعين الف دينار تسدد على دفعتين .

2_ يتم تبادل الاسرى بين الجانبيين .

3_ تلتزم بيزنطية بفتح الاسواق للتجار المسلمين في رحلة العودة .

4_ تمد بيزنطية الجيش الاسلامي بالمرشدين في طريق العودة .

5_ يسمح لافراد الجيش الاسلامي بأن يحملوا معهم كافة الغنائم .

6_ يستمر الصلح مدة ثلاثة اعوام .

نتيجة لهذا الانجاز الذي حققه هارون جعلت اباه يلقبه بـ (الرشيد) .

تعتبر هذه الحملة من اهم حملات الخليفة المهدي على الجبهة البيزنطية كما كانت خاتمة الحملات العربية ـ الاسلامية على البوسفور .

استمرت الهدنة بين الطرفين حتى عام (168 هـ / 784 م) حين نقضها البيزنطيون بعد مرور اثنين وثلاثين شهرا ، فاستؤنفت الغارات الاسلامية على الاراضي البيزنطية الا انها لم تحقق اي انجاز يذكر حتى وفاة المهدي في العام التالي .

والواقع ان الخليفة المهدي حقق انجازا كبيرا في سياسة الجهاد اكدت تحول كفة الصراع في عهده الى جانب المسلمين .

الوزارة في عهد المهدي

ازدادت صورة الوزارة وضوحا في عهد المهدي نتيجة منح الخليفة الوزراء سلطات واسعة واعتماده عليهم بشكل شديد . لذا كان تعيين الوزراء يتم في عهده وفقا لكفاءتهم الادارية و الكتابية وربما كان لدسائس الحاشية اثر في تعيين بعض الوزراء وعزلهم ، كما كان للوضع السياسي تأثيره المباشر في ذلك ونذكر من وزراء المهدي :

_ ابو عبيد الله معاوية بن يسار ، مولى الاشعريين وكان كتابه ونائبه قبل ان يلي الخلافة . وصرفه في عام (163 هـ / 780 م) نتيجة دسيسة الحاجب الربيع بن يونس .

_ ابو عبد الله يعقوب بن داوود ، مولى بني سليم استوزره بناء على دلالة الربيع بن يونس وكان متشيعا . وقد غلب على امر الخليفة . ثم نكب به في عام (166 هـ / 783 م) .

_ الفيض بن ابي صالح النيسابوري . اتصف بالكرم والفضل وسعة الحال الا انه كان متجبرا مترفعا وظل في منصبه حتى مات المهدي .

ولاية العهد ـ وفاة المهدي

خلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وعهد الى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد على التوالي .

توفي المهدي لثمان بقين من (شهر محرم عام 169 هـ / شهر اب عام 785 م) في قرية الروذ نتيجة اصدامه بباب خربة اثناء ممارسة رياضة صيد الغزلان . وفي رواية ان احدى جواريه وضعت سما في بعض المآكل لجارية اخرى فأكل المهدي منه وهو لا يعلم فمات .